اللّيتورجيّا في فَترَةِ التّريُوديّ

سلام المسيح معنا جميعًا،

سأتكلّم عن زمن التريوديّ أي الفترة المُمتدّة من زمن التّهيئة الّتي تُغطّي الأسابيع الأولى الأربعة قبل ولوج الصّوم حتّى أحد الشعانين، ومرجعي الوحيد كتاب زمن التريوديّ، وقد اشترك في كتابتِه المثلّث الرّحمات غبطة البطريرك إغناطيوس هزيم، الأب ليف جيلّله وجاك توراي الّذي اهتدى، في سنّ الرّشد، للإيمان الأرثوذكسيّ. ولكنّني سألجأ، أيضًا، لبعض أقوال القدّيس اسحق السّريانيّ وسيدنا المطران جورج خضر لإبراز المعنى الرّوحيّ لهذه الفترة المقدّسة.

أدعوكم لتتخيّلوا هذه الفترة كمَن يدخل إلى كنيسةٍ كتلك الّتي نحن فيها الآن، وهدفُنا النّهائيّ هو الولوج إلى قُدس الأقداس الّذي يُمثِّل الملكوت، عبر فترة جهاد تمتدّ خمسين يومًا.

نبدأ بِصحن الكنيسة حيث نجلس معًا الآن، وَيُمثِّل فترة التّهيئة. الأعمدة الّتي تُحيط بنا يَمينًا ويسارًا، وَتُشكِّلُ دعائم المبنى، تُمثّل نماذجَ تاريخيّةً تقدّمها لنا الكنيسة لنتمثّل بها، هي فترة الصيام حتّى أسبوع الفصح. وهي تقودنا إلى الهيكل وبابه هو أحد الشعانين ومذبحه خدمة الآلام.

لقد ثبتت دعائم هذا المبنى عبر الزّمن لتتحقّقَ فينا، فنتغذّى طيلة الصّوم بليتورجيا تُمتِّعنا بتذَوُّقِ الملكوت ونحن على الأرض. فترة التّهيئة تركّز على أربعة أفكار، اثنتان منها تخصّ النّفس: خطيئة الإنسان ومحبّة الله، واثنتان تتعلّقان بتاريخ الخلاص: سقوط آدم والمجيء الثّانيّ.

خصّصت الكنيسة المقدّسة الأحد الأوّل لمَثَل الفرّيسيّ والعشّار لتُبرِز فضيلة التّواضع والتّوبة كخطوة أُولى للوصول إلى الملكوت. يبرز القدّيس اسحق السّريانيّ هذه الفضيلة بكلمات مؤثّرة: "التّواضع هو وشاح الأُلوهة". النُّسك من دون تواضع لا يُفيد شيئًا، أمّا التّواضع من دون نسكٍ فيكفي لمغفرة الكثير من تعدّيّاتنا.

- التعليم ذاته يتردّد في الأحد الثانيّ أحد الابن الشّاطر ، ولكن مع التّشديد على محبّة الله اللّامُتناهيّة. تلك المحبّة الّتي تقبلُنا على علّاتِنا وترقب عودتنا عن غيّنا بعين الحنان دون عتابٍ أو لَومٍ، فالغفران والصّفح من صفات الله الطبيعيّة. صحيح أنّه ديّان ولكنّه أوّلًا مُحبّ ومُتسَامِح وغفور (هزيم). يقول

القدّيس اسحق: "المحبّة هي الملكوت الّذي وعد به الرّبّ رسله وعدًا سرّيًّا، أن يأكلوا فيه، لأنَّ الطعام والشراب على مائدة ملكوته ليسا سوى المحبّة".

- في الأحد التالي يطرح علينا التّريوديّ هذه الأسئلة: إلى أين نذهب؟ ما هدف وجودنا؟. وهذه أسئلةٌ وجوديّة لا ننفكّ عن طرحِها في كلّ مراحِل حياتِنا. ويُجيب السبت والأحد عنها، سبت الأموات يُذكّرنا أنّنا نسير إلى موتٍ مُحتَّمٍ ولكنّه بنعمة الله وبِجهادِنا يُمكن أن يكون عتبة الملكوت. والأحد يُذكّرُنا بِالمجيء الثانيّ حيث تتمّ الدّينونة، ونتفاجأ بأنّ المحبّة هي أساس الدّينونة، ما أفعله أو ما لا أفعله يرتدُّ عليّ ملكوتًا أو جحيمًا. في مقالتِه الأخيرةِ عن الصَّومِ، يقول المطران جورج خضر: "بِلا وجهٍ تُحِبُّهُ مَا أنتَ بِصَائمٍ، بِلا وجهٍ تُحِبُّهُ لَيسَ لَك فُصحٌ، بِلا وجهٍ تُحِبُّهُ لَستَ بِشيءٍ". وِيقول القدّيس اسحق السّريانيّ: "الله يُعاقِبُ بِمحبَّةٍ وَلَيسَ لِيَنتَقِمَ، إنَّه بَعيدٌ عَن هَذا، ولكن لِيُحاوِل أن يَجعل صُورَتَه كامِلة".
- تطرح علينا خِدَم الأسبوع التالي الّذي يسبق الصّوم الأسئلة التالية: مِن أين نأتي؟ وَكيف نَسير؟ نَأتي من فِردَوسٍ مَلائكِيٍّ وَلَكِنَّنا طُرِدنَا منه بعد سُقوطِ آدم. لا نرِثُ خطيئة آدم وَلَكن نَرِثُ طَبيعَةً خَاضِعَةً لِلخَطيئَةِ، لِذا نَشعُر بِالغربةِ والتّشتُّتِ وعدم الاستِقرارِ. وِلكي نُصَوِّبَ المَسيرةَ وَنَعُودَ إلى الفردَوس، نَلجأ للصِّيَامِ وَقُوَّةِ الإنجيلِ. المطران جورج خضر: "لا معنَى لِلصَّومِ إلّا إذا مارَسْتَه إقرَارًا بِخَطيئَتِكَ. رِياضَتُنا الأُولَى ليسَت الإمسَاك بل قراءة كَلِمَة الله. إنَّنا نُمسِكُ عن أطعِمَةٍ في سَبيلِ أكلِ كَلِمَةِ اللهِ".

وهكذا نكون قد وصلنا إلى عتبة الصِّيام ولا زالت أنظارُنا مُتَّجِهَةً نَحوَ الهَدَفِ: الوصول إلى قُدسِ الأقداسِ، إلى الملكوتِ الّذي أضعناه في زَمنٍ قبل الزّمنِ ونُحاوِل استِعادته. ولكن فترة التّهيّئة أوحَت لَنا بِمفاتيحِ الخلاص: التّواضع، التّوبة والمحبّة، ولكنّ طريق الجهاد طويلة.

الصَّوم الأربعينيّ: تُطِلُّ علينا فترة الصّوم الأربعينيّ الّتي تمتدّ حتّى أحد الشعانين، وتُذكّرُنا بِالأيّامِ الّتي قَضاها المَسيحُ في البرّيَّةِ والغرض الأساسيّ منها هو الصَّوم.

وليس الصَّوم قَهرًا لِلنَّفس فهو أيّام فرح "وحُلَّة مُبهِجَة"، هو جهادٌ ضِدَّ كلّ ميلٍ شَرّيرٍ وله قُوَّة شِفائيَّة، وأخيرًا، الصَّوم هو كالتَّوبَة طريقُنا إلى ملكوتِ الله إنْ التزَمنَا بِفَضيلَةِ المَحبَّةِ. القدّيس اسحق: "الصَّومُ تُرَافِقُهُ الصَّلاةُ وَسماعُ كَلِمَةِ الله الّتي تحمُل قوَّة الشِّفاء".

المطران جورج خضر: "الصَّومُ هو ترويضُ النَّفسِ على فَقرٍ إلى رَبِّها وإلى الآخَرينَ. لَسنَا ضِدَّ الجَسَدِ، نحنُ لِنُرَوِّضَهُ. كَيفَ نَكون ضِدَّ الجَسَدِ وَقَد لَبِسَهُ المَسيح؟. لَسنَا ضِدَّ اللَّذّة. نَحنُ ضِدَّ الأستِلذَاذِ، ولَسنَا ضِدَّ الجَسَدِ وَلَكِن ضِدَّ السَّعيِّ إلى الجَسَدِ سَعيًا مَجنُونًا".

كلّ من الآحادِ الخمسَة الّتي تسبُق الشَعانين تُذكِّرُ بِالهَدَفِ وَدُنُوِ الفُصحِ. وَتُقَسَمُ هذه الفَترَة مرحَلَتَين يَتوسَطّهما الصَّليب الّذي نُكرِّمُهُ في الأحدِ الثَّالِثِ. تُهيِّئُنَا المرحلةُ الأُولَى (أحد الأُرثوذكسيَّة وأحد القدِّيس غريغوريوس بالاماس) حتّى نرى الصّليب في نورِ الله.

وَتُعَلِّمُنا الثَّانيّة (أحد القدّيس يُوحنَّا السُلَّميّ وأحد القدّيسة مريم المصريّة) حمل الصَّليب حتّى التّجلّي في القيامَة.

الفكرة الطاغيّة في هذه الفترةِ إذًا هي فكرة الصَّليب "مَن أرادَ أنْ يَتبَعني فَليَكفُر بِنَفسِهِ وَيَحمُل صَليبَهُ وَيَتبَعني". لَقد خطَّ لَنا الرّبُّ يَسُوعُ الطَّريقَ الّتي يجب أن نَسلُكَها لِنَصِلَ إلى الملَكُوت وَقد سَلَكَها قَبَلَنَا. فَهل أنا مُستَعدٌّ أن أتبعَ المَسيح حَامِلًا الصَّليب؟ هل أنا مُستَعِدٌّ أن أقبَلَ جَميع الشدائد والآلام الّتي أُعاقِرُها كُلَّ يَومٍ مُشتَرِكًا في صَليبِ المُخَلِّص؟.

هذه هي المسألةُ، يا إخوتي، وهذه هي خُلاصَةُ الحُبِّ. التّريوديّ الّذي يحمل فكرة المُثالثَة (وهُنا لا أتكلَّمُ في السِّياسَةِ) يُصوِّرُ أمَامَنا ثُلاثيَّ الإنسَان والله وغاية الأشياء.

الإنسانُ الّذي يهدُف لِمُشارَكَة المَسيح في مجدِهِ يُقِرُّ بِخَطيئَتِهِ يَتوبُ وَيَتوَاضَعُ. الله الغَفُورُ الّذي يَستَقبِلُ الخاطِئَ بِدُونِ إدانَةٍ. وغايَةُ الأشيَاء هي أن تَتمَّ حَياتَنا بِمحبَّةٍ ونُعيدَ الشَّرِكَة الفِردَوسيَّة. والطَّريقُ هي طريقُ الصَّليب، والمَسيح قد أرانا هذه الطَّريق، ونحن نتدرَّبُ لِلسَّيرِ فيها خلال هذه الفترةِ المُقدَّسَةِ. وَهَدَفُ الّليتورجيَا الّذي رتَّبته الكنيسة لِهذه الفترة هو عيش هذا السِّرِّ الّذي أعلنه المسيح لِخلاصِنا والّذي يرنُو إلى تألُّهِ الإنسانِ والدُّخولِ في مملكةِ المسيحِ الأبديَّةِ.

اللَّهُمَّ افتَح قُلوبَنا وَعُقُولَنَا لِنَستَقبِلَكَ فَنَعيشَ هذه الفترة بِإيمانٍ وَرجَاءٍ وَمَحَبَّةٍ وَفَرَحٍ.